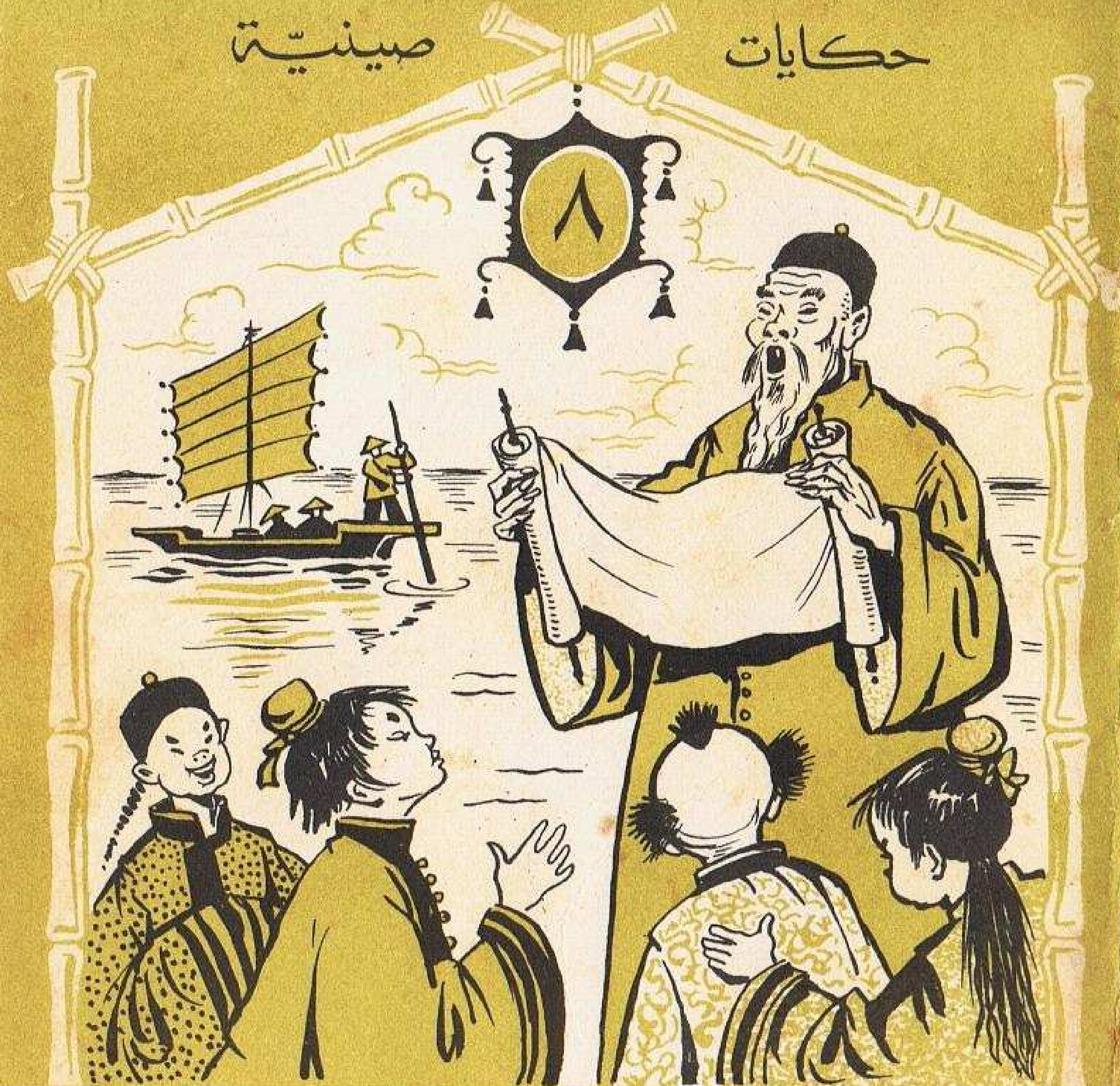


كنز الفضة

دار المعارف بمصر

حكايات صينية

مجموعة من الحكايات الشائقة اللطيفة التى تصور للناشئة العربية بلاد الصين وأخلاق أهليها وجوانب من معايشهم ومجتمعاتهم ونوادرهم ولطائفهم .

● صدر منها :

دار المعارف للطباعة والنشر

ملتزم التوزيع : مؤسسة المطبوعات الحديثة ـ ٣ شارع ماسبيرو ـ القاهرة

حكايات صينية

٨

كَنزالفِضَّة

للأساتذة

محمد أحمد برانق　　　حامد محمد سليمان

تان سومين

湯書民

دار المعارف بمصر

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر — ٥ شارع ماسبيرو — القاهرة

كَنْزُ الْفِضَّةِ

١

مُنْذُ زمنٍ بَعيدٍ عاشَ أَحَدُ الإقْطاعِيِّينَ ، وَكان رجُلًا ظالِماً يأخُذُ مِن الفَلَّاحِينَ ضرائِبَ الأَرضِ مُقَدَّماً ، ثمَّ يُطالِبُهُمْ برهِينةٍ حتَّى يَضمنَ سَدادَهمُ الإيجارَ آخِرَ العام ، فَإِذا عَجَزَ أحدُ الفلَّاحِينَ عَنِ الدَّفعِ استوفى أُجْرةَ الأرضِ مِنْ هذهِ الرَّهِينَةِ ، وكثيرًا ما كانَ يَطرُدُ الفلَّاحَ مِنَ الأرضِ لِيُؤَجِّرَها لِآخرَ ، ثمَّ يرفضُ أنْ يَرُدَّ الرَّهِينةَ إلَى صاحِبِها .

اسْتأْجَر أَحدُ الفلَّاحِينَ قِطعةَ أَرْضٍ مِنْ هـذا الإقْطاعِيِّ ، وَلكنْ لم تَكَدْ تَمضِي سَنتانِ حتَّى قرَّر

الإقْطاعىُّ طَرْدَهُ ، وأَخَذَتْ زَوْجَةُ الْفلَّاحِ تلُومُهُ قائلَةً :

لَوْ كُنَّا نعْرِفُ أَنَّ مدَّةَ الزِّراعَةِ قصيرةٌ هكَذا ما دفَعْنا الرَّهِينَةَ !!

فَأَجابهَا :

لَقدْ دَفَعْنَا الرَّهينةَ وانتهى الأمرُ ، وعلَيْنا الآنَ أَنْ نَبحثَ عنْ وسيلةٍ أُخرى نكْسبُ بِها رِزْقَنَا ولٰكنْ ... لا بُدَّ أَنْ أَذْهبَ إِلى هذا الرَّجُلِ وأَتغدَّى عِندَهُ .

قالَتِ الزَّوْجَةُ :

إِنَّ هذَا الرَّجُلَ لَا يُعطيكَ قطْرَةَ ماءٍ لِتُنْقذَكَ مِنَ الْعطَشِ ، فَكيفَ يَسْمحُ لكَ بِتناوُلِ الْغدَاءِ عندَهُ ؟!

قالَ الْفلَّاحُ :

عِنْدِى حيلَةٌ ، فجَهِّزِى مَتاعِى لِأَذْهبَ إِليهِ .

٢

سَارَ الْفلَّاحُ حتَّى بلَغَ بيْتَ الإقْطاعىِّ ، ثمَّ قابلَهُ وطلَبَ مِنهُ الرَّهِينَةَ ، وقالَ لهُ ضاحِكاً :

إنَّنى سأَنتَقِلُ إلى قريةٍ أُخرَى ، ولٰكنِّى أُحبُّ أَنْ أُخْبِرَكَ بخبَرٍ سارٍّ قبلَ سَفَرِى .

فَسأَلهُ الإِقْطاعىُّ : وما هذَا الْخبرُ السَّارُّ ؟!

قالَ الفلَّاحُ: كانَ ذلك أَمْس بعْدَ مُنْتَصَفِ اللَّيلِ ، وقدْ كُنْتُ أُفكِّرُ فى أَنَّنى سأُسَافِرُ فى الصَّباحِ التَّالِى وأَنَّ فى حَقْلِى جزرًا لم يُقلَعْ ، فأَخَذْتُ فأْساً وانطلقتُ إلى الحقْلِ ، وعِندَ أَوَّلِ ضربةٍ سَمِعْتُ رنِيناً ، فعَجِبْتُ كثيرًا ، ثمَّ انْحنَيْتُ علَى الأَرْضِ ، فوَجَدتُ قِطعةً منَ النُّحاسِ ، فجَذَبْتُها ، فوَجَدتُ تحتَهَا قِدْرًا مَمْلوءةً بالْفِضَّةِ الْبَيضاءِ كالثَّلْجِ .

خفقَ فُؤَادُ الرَّجُلِ عِندَ ما سَمِعَ حَديثَ الْفلَّاحِ ، وَلـٰكنَّهُ حاولَ أَنْ يُخفِيَ اهتِمامَهُ ، فقالَ لِلْفلَّاحِ :

هذِهِ الْفضَّةُ لكَ ، ولَيْسَ لِي مِنها شَيْءٌ .

قالَ الْفلَّاحُ :

إِنَّ هذِهِ الفضَّةَ مَختُومَةٌ باسْمِكَ ، فَكيفَ آخُذُها ؟!

سُرَّ الإِقْطاعِيُّ كَثيرًا حينَ سَمِعَ حديثَ الرَّجُلِ ، وطَلبَ إِلَى خَدمِهِ أَن يُعِدُّوا لهُما الطَّعامَ والشَّرابَ فَوْرًا ، وَجَلَسا يَتغدَّيانِ .

وفِي أَثْناءِ الْغداءِ سَأَلَ الإِقْطاعِيُّ الْفلَّاحَ :

أَحقًّا أَنَّكَ لَمْ تأْخُذْ شيئًا مِنْ هذهِ الْفِضَّةِ ؟ ولَا قِطعةً واحِدةً ؟!

أَجابَ الْفلَّاحُ : لَا أَكْذِبُ عليكَ ، لَقدْ أَخَذْتُ قِطعةً واحِدةً لِأَتحقَّقَ مِمَّا وجدْتُ .



وأخذ الإقطاعي يوصي الفلاح بأن يأكل كثيراً ويشرب كثيراً

فقالَ الإقْطاعىُّ فى نفسِهِ :

إنَّ هذَا الْفَلَّاحَ عَظِيمُ الإخْلاصِ ، وَهوَ قدْ كَشفَ الْفِضَّةَ ، وَلَمْ يُخْفِ هذا عنِّى ، وَقَدْ أَخَذَ قطْعةً وَاحدَةً مِنَ الْفضَّةِ ، وَأَخْبَرَنى بِهَا أَيْضاً .

ثمَّ أَمرَ خَدمَهُ أنْ يزيدُوا مِنْ أَصْنافِ الطَّعامِ والشَّرابِ ، وأَخذ يُوصِى الْفلَّاحَ بِأنْ يَأْكلَ كَثيرًا ويشْرَبَ كَثِيرًا . . .

وعِندما شَبِعَ الْفلَّاحُ قالَ لِلإقْطاعىِّ :

أَرجُو أنْ تَسْمَحَ لِى بالْعوْدةِ إلى بَيْتِى . . .

فَسألهُ الإقْطاعىُّ ، لِيتأَكَّدَ مِمَّا يقُولُ :

قُلِ الْحَقِيقةَ : هلْ أَخَذْتَ مِنَ الْفِضَّةِ قطْعةً وَاحِدَةً فقطْ ؟

فَأجابَ الْفلَّاحُ ضَاحكاً :

كَيفَ آخذُ أَكْثرَ منْ هذَا ، وَالْفِضَّةُ عِنْدكَ أَغْلى منَ الحياةِ ؟ ! لقدْ كنتُ أُرِيدُ أَنْ أُغطِّىَ هذهِ الْفضَّةَ كما كانتْ ، ولـكنْ عِندما أخذتُ الْفأْسَ لِأُغطِّيَهَا رَكلتْنِى زَوْجتِى بِقَدَمِهَا فاسْتَيْقظْتُ .

فَسأَلهُ الإقْطاعىُّ مَذعُورًا : أَتُراكَ تذكُرُ حُلْماً ؟ !

قالَ الْفلَّاحُ ساخِرًا : أَجَلْ ! إنَّ ما أَخْبرْتُكَ بهِ كانَ حُلماً رأَيتُهُ وأنَا نائمٌ ! فهلْ ظَنَنْتَ أنَّهُ حقيقةٌ ؟ !

وما إنْ أَتمَّ الْفلَّاحُ كلامَهُ حتَّى حَمَلَ متاعَهُ ، وانْطَلَقَ يُغادِرُ الْقصْرَ .

أَمَّا الإقْطاعىُّ فقدْ أَخذَ يَصِيحُ ويَصْرُخُ ويضْرِبُ المِنْضَدةَ بقَبْضَةِ يَدِهِ ؛ لِأنَّهُ أعدَّ لِلفلَّاحِ طعاماً وَشرَاباً دُونَ فائدَةٍ ، وكانَ الْأَلَمُ يَعْتَصِرُ فُؤَادَهُ وهُوَ يُتابعُ بِبَصَرِهِ شَبَحَ الْفلَّاحِ وَهوَ يُغادِرُ القَصْرَ .

الْيَرَاعَةُ وَالْقَوْقَعَةُ

١

كانَ لِفلّاحٍ فقيرٍ وَلَدٌ ، وَكانَ هذا الْوَلَدُ يعملُ مُنْذُ طفولَتِهِ راعياً عِنْدَ أَحَدِ الْأَغْنياءِ ، وَكانَ عليهِ إلى جانِبِ رَعْيِ الأبقارِ وَالْغَنَمِ أَنْ يَقطَعَ الْخَشَبَ وَيحمِلَ الْماءَ ؛ وَكانَ يَعمَلُ مُنذُ الصّباحِ حتى اللَّيْلِ دُونَ أَنْ يجِدَ دَقيقةً يَرْتاحُ فِيها .

وذاتَ يومٍ كانَ الصَّبيُّ يحمِلُ الماءَ ، وكانَ النَّهارُ قَدْ مَضى نِصفُهُ ، ولَمْ يكُنْ قَدْ تناوَلَ طعاماً بَعْدُ ، فدعاهُ الْغَنيُّ ، وَأَعطاهُ عَشرَ قِطعٍ صَغيرةٍ منَ النقودِ قيمتُها خمسةَ عَشرَ مِلِّيماً ، وَطلَبَ مِنْهُ أَنْ يذهَبَ إلى الْمدِينَةِ ،

وَيشترِي بَعْضَ الزَّيْتِ ؛ وَلَمْ يجْرُؤْ الصَّبيُّ عَلَى الرَّفْضِ ، فَذَهَبَ إِلى المدينَةِ ، والْجوعُ الشَّديدُ يُؤْلِمُهُ .

كانَ الوَقْتُ صيفاً ، والشَّمْسُ مُحْرِقَةً ، وَبيْنَ الْقَرْيَةِ وَالْمَدِينةِ حَوالىْ ثلاثينَ لِى ، أَىْ نحْوُ عَشْرَةِ كِيلُومِتْرَاتٍ ، وَتحَالَفَ الْحرُّ والتَّعَبُ والْجوعُ عَلَى الصَّبِيِّ ، وبدأَ يَشْعُرُ بالضَّعْفِ والدُّوارِ ، وَبلَغَ المدِينَةَ بمَشَقَّةٍ .

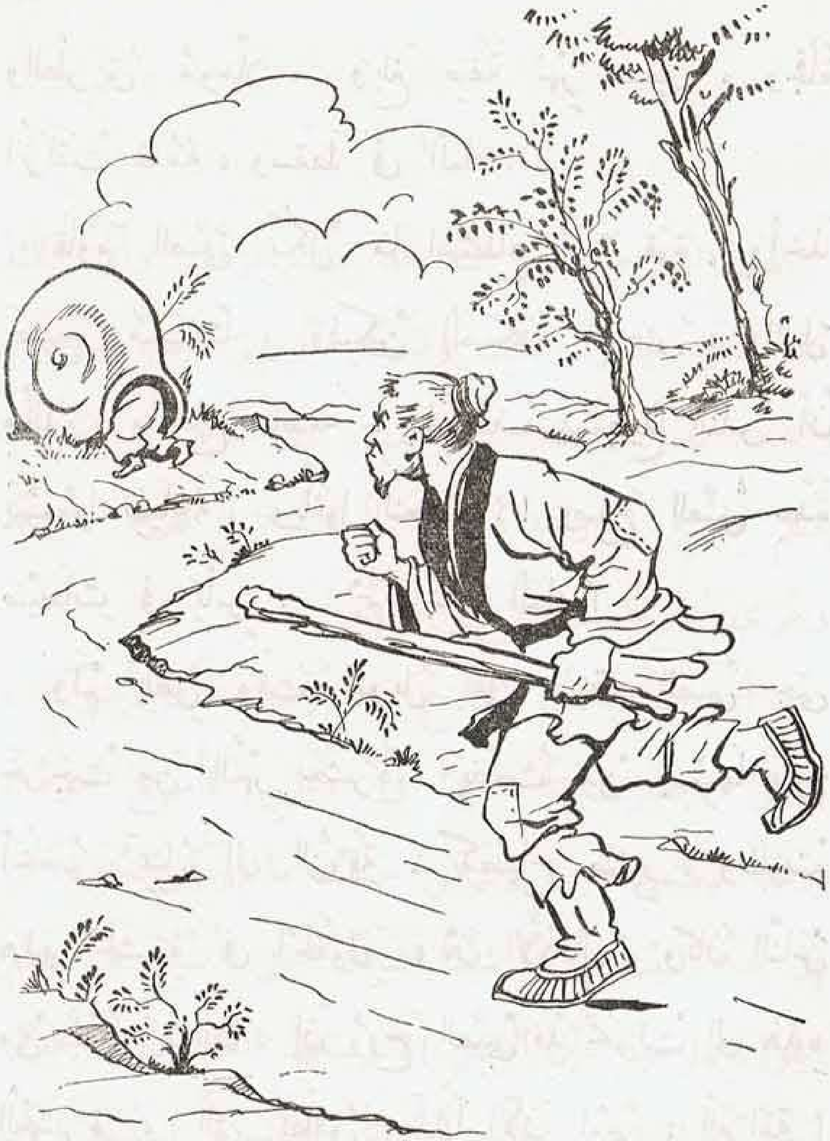
وعِنْدَما وصلَ الصَّبيُّ إلى بائِعِ الزَّيْتِ بحثَ عَنِ النُّقُودِ فلمْ يجِدْهاَ ... كَيْفَ ذَلكَ ؟ ! فزِعَ الصَّبِيُّ ، وتَصَبَّبَ جبِينهُ عرَقاً ، وأَحَسَّ بِالرِّعْدَةِ تسرى فى جِسْمِهِ ... وأَخَذَ يُقلِّبُ جُيوبهُ باحِثاً عن النُّقُودِ ، ولٰكِنْ ... دُونَ جَدْوَى .

ظَنَّ الصبيُّ أَنَّ النُّقودَ قدْ سقطتْ منهُ فى الطَّرِيقِ ، فعادَ لِيبْحَثَ عَنْها ، وظَلَّ يَمْشِى وَيَبْحَثُ عَلَى الرَّغْمِ من جُوعِهِ وتعبِهِ ، ولٰـكِنَّهُ لم يجِدْ شَيْئاً ، فاضْطُرَّ أَنْ

يعُودَ إلى السيِّدِ الْغنِيِّ لِيُخبِرَهُ ، وعِنْدَما سَمِعَ السَّيِّدُ أنَّ نقُودَهُ قدْ فُقِدَتْ غَضِبَ غضباً شديداً ، وتناولَ عصاً خشَبِيَّةً غليظَةً ، وأخذَ يَضْرِبُهُ بِهَا ضرْباً شدِيداً مُوجِعاً ، ثمَّ أمَرَهُ أنْ يَخْرُجَ لِلْبَحْثِ عنها مَرَّةً أُخرى حتى يجدَهَا .

كان الظلامُ قدْ حلَّ ، فحَمَلَ الصَّبِيُّ مصْباحاً ، وعادَ لِيَبْحَثَ عنِ النُّقُودِ ، والدُّمُوعُ تمْلَأ عَيْنَيْهِ ، ولمْ يَبْعُدِ الصَّبِيُّ كَثِيرًا حَتَّى بدَأَ الْمطرُ يَنْهَمِرُ انْهِمارًا شدِيدًا ، — لِأَنَّ الصَّيْفَ هُوَ مَوْسِمُ الْأَمْطَارِ فِى بلادِ الصِّينِ — وَبلَّلَ الماءُ ثِيابَهُ كلَّها ، وكانَ جائعاً مُتْعَباً ، وأَحسَّ بِالْخوَرِ يَسْرِى فى يدَيْهِ ورِجْلَيْهِ ، ولمْ يَبْقَ لديْهِ شَيْءٌ منَ الْقُوَّةِ ، ولَكِنَّهُ لَمْ يجرُؤْ على العَوْدَةِ ، وكان يُحَاوِلُ أنْ يَبْحَثَ عنِ النقودِ والمِصْباحُ فِى يَدِهِ .

بَحَثَ الصَّبِيُّ مرَّةً بَعْدَ مرَّةٍ، وكانَ الظَّلامُ حالِكاً ،



وبدأ البيت يصغر شيئاً فشيئاً . . .

والطَّريقُ مُوحِلًا ، وَبلغَ ضِفَّةَ نَهْرٍ صَغيرٍ ، وفجأةً انْزَلَقتْ قدمُهُ ، وسقطَ فى الْماءِ . . .

قاوَمَ الصَّبِيُّ بِكُلِّ ما استطاعَ مِنْ قوةٍ ، وأخذَ يَصِيحُ مُسْتَغِيثًا ، وَلٰكِنَّ الْمكانَ موحشٌ ، والليلَ مُظْلِمٌ ، والرِّياحَ عَاصِفَةٌ ، فَكَيْفَ يَسْتَطِيعُ النَّاسُ أَنْ يَسْمَعُوا صِياحَهُ ، ويأْتُوا لِنجدتِهِ ؟ ! وصاحَ الصَّبِيُّ عِدةَ صَيْحَاتٍ فِى يَأْسٍ . . . ثُمَّ ابْتَلعهُ الْماءُ !

ولَمْ يَمْضِ وقْتٌ طويلٌ على غَرَقِ الصَّبِيِّ حتى خَرَجَتْ مِنَ النَّهْرِ حَشَرَةٌ ، يَنْبَعِثُ مِنْ جِسْمِها ضَوْءٌ أَخْضَرُ يَمِيلُ إلى الزُّرْقةِ ، كَمِصْباحٍ صَغيرٍ ، وطَارَتْ هذهِ الحَشَرَةِ فى الْحُقولِ وبيْنَ الأَدْغالِ ، وكانَ النَّاسُ مِنْ بعْدُ يَقُولُونَ : إِنَّ رُوحَ الصَّبِيِّ قَدْ تحوَّلَتْ إلى هٰذِهِ الْحَشَرَةِ ، الَّتِى نُطْلِقُ علَيْها الآنَ اسْمَ : الْيَراعَةِ !

٢

عَلِمَ الْفَلَّاحُ أَنَّ ابْنَهُ قَدْ مات غرَقًا ، وأَنَّ ذلكَ كانَ سَبَبه جَوْرُ الْمالِكِ وظُلْمُهُ فَغَضِبَ غَضَبًا شديدًا ، وأخذَ عصًا غَلِيظَةً ، وذَهَبَ إِلى الْمالِكِ يُرِيدُ أن يَنْتَقِمَ لِابْنِهِ . وعندَ ما رآهُ الْمالكُ فَزِعَ فزَعًا شَدِيدًا وجَرَى مُسْرِعًا ، والفَلَّاحُ يُطارِدُهُ .

رأى الْمالِكُ أنَّ الْفلَّاحَ قد أوشكَ أَنْ يُدْرِكَهُ ، ونظرَ فأَبْصَرَ بيْتًا صَغيرًا فِى دَغَلٍ ، فأَسْرَعَ نَحْوَهُ ، ودخلهُ ليحتمى بِهِ ، ولٰكِنْ حَدَثَ ما لم يكُنْ مُتَوَقَّعًا . . . إِذْ بَدَأَ الْبَيْتُ يَصْغُرُ شيْئًا فَشَيْئًا ، حتى أَصْبَحَ فى حَجْمِ الجوْزَةِ (حبة عَيْنِ الجَمَلِ) ، وضَغطَ الْمالكَ حتى تَحَوَّلَ دُودةً صغيرَةً ، هذهِ الدُّودةُ الصَّغيرَةُ نسمِّيها الآنَ

« قَوْقعةً » ؛ وقدْ بَقيتْ عَدُوًّا لِلفَلَّاحِ ، ولا تزالُ تَعِيشُ حتى اليومِ على ما يَزْرَعَهُ الْفَلَّاحُونَ ، ولم يُفارقْها خوفها مِنَ الْيَرَاعَةِ حتى الْآن ، وكلَّما رَأَتِ اليراعةُ هذِهِ الدُّودةَ أسْرَعَتْ ولدَغَتْهَا ، وكلَّماَ رَأَتِ الدُّودةُ اليراعَةَ أسْرَعَتْ بِالِاخْتِبَاءِ فِى قَوْقَعَتِهَا ، ولَمْ تجْرُؤْ على إِخْرَاجِ رَأْسِهَا .

اَلطَّبْلُ النُّحَاسِىُّ الْأَحْمَرُ

١

فى قَرْيَةٍ صغيرةٍ عنْدَ سَفْحِ جَبَلِ جِيُولُون كانَ يَعِيشُ لِىجَا وزَوْجَتُهُ ، وكانَ لهما أَبْناءٌ ثلاثةٌ : وَلَدَانِ وبِنْتٌ .

كانَ الابْنُ الأكْبرُ بطلًا فى قَرْعِ الطُّبول ، وكانَ يَسْتطيعُ أنْ يقْرَعَ الطَّبْلَ النُّحَاسِىَّ الكبيرَ فيُسْمَعَ له صَوْتٌ كَهَزِيمِ الرَّعْد ، ولهذا السَّبب أَطْلَقَ عليْه النَّاسُ اسْمَ : مُرْعِدِ السَّماء . أمَّا الوَلدُ الثَّانى فكانَ فلَّاحًا ماهرًا ، ولم يَكُنْ هُناكَ أحَدٌ يستطيعُ أنْ يزرع مِثلهُ ، فسَمَّاهُ النَّاسُ : مُرْعِدِ الأرض .

وكانت أُخْتُهما ماهِرةً فى نَسْجِ الحرير ، فأطلق عليْها النَّاسُ اسْمَ : زَهْرةِ الْحَرير .

كانَ جَيْشُ الإمْبراطُورِ كثيرًا ما يُهاجِمُ سُكانَ هذهِ المَنْطَقَة ، ويَغتَصِبُ الْحُبوبَ والذَّهبَ والفِضَّةَ والْحَرير ، ولِكَىْ يَحْمى سُكانُ القُرَى المجاوِرةِ لِجَبلِ جُيُولون أنْفُسَهُمْ منْ هَجَماتِ الإمْبراطُور أَقَامُوا بُرْجاً كَبيرًا فوْقَ قِمَّةِ الجَبل ، وَوَضعوا فى هذا البُرْج طَبْلاً نحاسيًّا ضَخْماً ، وطَلبُوا إلى مُرْعِد السماء أنْ يَسْكنَ تحْتَ بُرْج الطَّبل لِيَدُقَّهُ إذا رأَى جَيشَ الإمْبراطورِ قادِماً .

فكانَ كُلَّما حاوَلَ جَيشُ الإمْبراطورِ الهجُومَ عَلَى هذهِ المنْطقةِ أخَذَ مُرْعِدُ السماءِ يقْرَعُ الطَّبلَ ، فيَتَجمَّعُ سُكانُ الْقُرَى القَرِيبةِ والْبعيدَةِ لِيُدَافِعوا عنْ أنْفسهِمْ ، ومُنْذُ أُنْشِئَ بُرْجُ الطَّبلِ وَوُكِلَ أَمْرُ العِنايَةِ بهِ إلى مُرْعِدِ السَّماءِ لم تستَطِعْ قُوّاتُ الإمْبراطورِ أنْ تَنالَ شيئاً منْ هذهِ المَنْطقةِ .

وذَاتَ مَساءٍ هَبطَ مُرْعدُ السَّماء منْ بُرْج الطَّبل ، فلَقِىَ فى طَرِيقِهِ رجُلًا غَرِيباً يحْمِلُ على ظَهْرِهِ بعْضَ الأَمْتِعة ، وقالَ لهُ الرَّجُل الْغريبُ :

أَيُّها الأخُ الكبيرُ ! إنِّى بائعُ خُمورٍ وقَدِ اقْتربَ اللَّيْلُ ، فهلْ يمكنُ أنْ تَسْمحَ لِى بقَضاءِ اللَّيل عِنْدَكَ ؟ !

تأَمَّلَ مُرْعدُ السّماءِ الرَّجُلَ، فرأَى أَماراتِ الأمَانةِ تبْدُو على وَجْهِهِ ، فلمْ يرْفُضْ رجاءَهُ ووَافقَ على أنْ يقْضِىَ اللَّيلَ عِندهُ . وفى اللَّيْلِ أَخْرجَ تاجِرُ الخُمورِ نَبيذَهُ المعطَّر ، وبعْضاً منَ اللّحمِ المجفَّف ، ودَعا مُرْعِدَ السَّماءِ إلى أنْ يأْكُلَ ، وكانَ الشَّابُّ قدْ تعوَّدَ أنْ يشْرَبَ قليلًا ، ولكنَّهُ عندَما رأَى هذا النَّبيذَ المعطَّرَ لمْ يَسْتَطعْ أنْ يقاوِمَ رائِحتَهُ الذَّكِيّة ، كما أنَّ تاجِرَ الخُمورِ أخذَ يُشَجِّعُهُ علَى الشَّرابِ قائلًا : اِشْرَبْ أيُّها الشُّجاعُ ! اشرَبْ أيها البَطل !

وأخَذَ يُثْنِى عليْه ويُبالغُ فى الثَّناء .

وَشَرِبَ مُرْعِدُ السماء كأْساً بعدَ كأسٍ ، ولم يَمْضِ إلّا قليلٌ حتّى ثَمِلَ ، وتَمَدَّدَ فى فِرَاشِه لا يَعِى شيئاً .

* * *

طَلَعَ النَّهارُ ، وأقبلَ بَعْضُ القَرَويِّين ، وهم يَلْهثُونَ ، وأخَذوا يَهُزُّونَ مُرْعدَ السَّماء ليَسْتَيْقِظ صائحِينَ :

لقَدْ حَضرَ الإمْبراطُورُ بنفْسِه على رَأْسِ الجَيْشِ هذه المرَّة ! أَسْرِعْ ودُقَّ الطَّبلَ . . .

نَهضَ مُرْعِدُ السّماء ، وهو لا يزالُ خَدِرًا ، وجَرَى نَحْوَ بُرْجِ الطَّبلِ . . .

آهٍ ...! لقدْ أصْبحَ الطَّبلُ الضَّخْمُ أربعَ قِطعٍ من النُّحاسِ .

وأخَذَ مُرْعِدُ السّماء ينْظرُ فى دَهْشةٍ :

مَنِ الذى كَسَرَ الطَّبلَ النُّحاسىَّ الضَّخْم ؟!

٢

كانَ جُنودُ الإمْبراطُورِ المَهْزُومون قدِ اعْتَذَروا لدَيْه بأنَّ سَببَ هَزيمتِهِمْ إنما هُو هذا الطَّبلُ الضَّخمُ الذى وَضَعهُ القَرَويُّونَ فوْقَ قِمَّةِ الجَبلِ ، فغَضِبَ الإمْبراطورُ غضَباً شَديدًا ، وَصاحَ فيهِمْ :

إنَّكم أشْياءُ لَا نفْعَ منْها . . . كانَ يجِبُ علَىَّ أنْ أقْطعَ رؤوسَكُمْ !

فرَكَعَ القائدُ المَهْزُومُ عنْدَ قَدَمَى الإمْبراطور، وَقال :

يا صَاحِبَ الجلالَةِ ! إنَّ سَببَ هَزيمتِنا إنَّما هُوَ هذَا الطَّبلُ الضَّخْمُ الموْضوعُ على قِمَّةِ جَبَلِ جُيولونَ . . . عِنْدَ ما يُقْرَعُ هذَا الطَّبلُ فإنَّ النَّاسَ والخَيْلَ يُحيطونَ بِنا منْ كلِّ جانب ... كيْفَ يمكنُنا أنْ نُقاوِمَ ؟! إنَّنا نَبْتَهِلُ إليْكَ أنْ تَقودَ الجيْشَ بِنفْسِك لتُنْزِلَ

بهذهِ المنْطقةِ عِقابكَ ، وأرى أنْ تُرْسِلَ فى الوقْتِ نفْسِه رَجُلًا قويًّا مُتنَكِّرًا فى زِىٍّ بائعِ خُمورٍ ، وَلْيَحْمِلْ مَعهُ فأْسًا ليُحطِّمَ بها الطَّبْــلَ ، وبهذهِ الطَّريقةِ ستَسْتطيعُ يا مَوْلاىَ أنْ تُنزِلَ بهؤلاءِ القَرَوِيِّين هزيمةً شَديدةً .

رأى الإمْبراطُورُ أنَّ هذه الخُطَّةَ حَسنةٌ ، فأرْسَلَ أوَّلًا رَجُلًا مُتنَكِّرًا فى زِىِّ تاجِرِ خُمورٍ إلى جَبَـلِ جُيولونَ ، ثمَّ خرجَ بعْدَ ذلكَ عَلَى رَأْسِ جَيْشٍ ضَخْمٍ ، ليُهاجِمَ هذهِ المِنْطَقَةَ .

وَهـكَذَا خَدَعَ الرَّجُلُ مُرْعِدَ السَّماء ، وسَقاهُ حتّى ثَمِلَ ، ثمَّ صَعِدَ إلى بُرْجِ الطَّبْلِ ، وحَطَّمَهُ، ولم يَهتمَّ الرَّجُلُ بأَمْتِعَتِه بعْدَ ذلكَ ، بل انْدفَعَ هاربًا كخَيْطٍ من الدُّخانِ ، وأرْسَلَ إلى الإمْبراطُور يُخْبِرُه بمَا حَدثَ ، وتقدَّمَ الجيْشُ ليُهاجِمَ مِنْطَقةَ جَبلِ جُيولونَ .

٣

عَلِمَ وَالِدَا مُرْعِدِ السَّماءِ بالأَمْرِ فأقْبلا يُؤَنِّبانِه قائلَيْن :

أيُّها الإنسانُ المُهْمِلُ ! كَمْ مِنَ النّاسِ يُعانُونَ الآنَ منْ إهمالِكَ ! ليْسَ لهذا الطَّبْلِ مَثيلٌ فى هذِه المِنْطَقَة ! عليْكَ أنْ تُسْرِعَ وتجْمعَ النَّحّاسين جميعًا ، ليَصْنَعوا طَبْلًا نُحاسِيًّا ضخْمًا فى هذه اللَّيْلَةِ ، وحتّى يَتِمَّ ذلكَ سنَجْمَعُ بعضَ الرِّجالِ والخَيْلِ ، وسَنخْرجُ لنعُوقَ جَيْشَ الإمْبراطور .

صَحِبَ لِى جَا زَوْجَتَه وابْنَهُ الثّانى (مُرْعِدَ الأرضِ) ، وجَمْعًا من النّاسِ والخَيْلِ ، وخَرجُوا للْحَرْبِ ، أمّا مُرْعِدُ السَّماءِ فقدْ جَمعَ بعضَ النَّحّاسين فى دارِه ، وأخَذوا يعْمَلونَ فى حَماسَةٍ لإعْدادِ طَبْلٍ جدِيدٍ ، وَفَشِلوا أوَّلَ مرَّةٍ فى إعْدادِ الطَّبْلِ ، وبَدَءوا منْ جديدٍ ، ولكنَّ جنُودَ الإمْبراطُور يَقْتربونَ شيْئًا فشيْئًا .

ولم يَكُنْ العـددُ الذى صحِبَ لِى جا كبيرًا ، فلم يَسْتطيعوا أنْ يَقِفوا تقَدُّمَ الجيْش ، واسْتُشهِدَ لِى جا وزوجتُهُ ، أمَّا مُرْعِدُ الأرْضِ فقدْ أُثْخِنَ بالْجِراحِ ، ولـكنَّهُ اسْتطاعَ أنْ يعودَ إلى بَيْتِهِ مُتْعَبًا مكدُودًا لاهِثَ الأنْفاسِ .

* * *

ملأَ الجزَعُ نفوسَ أهلِ القريةِ ، وسَمِعتْ زهرةُ الحريرِ — وهى تُساعِدُ النَّحاسينَ فى إشْعالِ النيران — أنَّ جُنودَ الأعداء يَقتربون شيئًا فشيئًا ، وأنَّ أبَوَيها قد قُتِلا ، وأنَّ أخاها قد عادَ مُثْخنًا بالْجِراحِ ؛ فانهمرتْ من عينيْها الدُّموعُ ، ونَظرتْ من خِلالِ دُموعِها ، فرأتْ أخاها والنَّحاسينَ يَدُورون حولَ الفُرْنِ ، وقد ازرقَّتْ وُجوهُهم ، فشعَرتْ كأنَّ ذِئبًا قد نهشَ قلبَها ، وفجأةً تذكَّرتْ قصةً قصَّها عليها

جدُّها عن عملِ مِحراثٍ من الحديد .

قال لها جدُّها :

« يُحكَى أنَّ هذه المنطقةَ كانت كلُّها جِبالًا ، ولم تكنْ فيها سُهولٌ قطُّ ، مما جعَلَ حَرْثَ الأرضِ أمرًا بالِغَ الصعوبة ، وكان هناكَ حدَّادٌ يريدُ أن يَصْنَعَ مِحراثًا كبيرًا يستطيعُ أن يُسوِّىَ به قمَّةَ الجبَلِ ، فأمضى عامًا كامِلًا يعملُ فى هذا المحراثِ ، وأحْرقَ فى سَبيلِه كلَّ الأخشابِ النابتةِ على جبَلَيْن ، ولكنه فَشِلَ مع ذلك . ولمَّا رأتْ زَوْجُه هذا جرَحتْ ساعِدَها بسكِّينٍ ، وترَكَتِ الدِّماءَ تَسيلُ فى (بُودَقةِ) الحديدِ ، وعند ما صَبَّ الرَّجلُ الحديدَ المصهورَ استطاع أن يصنعَ المحراثَ فورًا . . . هذا المحراثُ سوَّى عِدَّةَ قِممٍ ، وبفضلِه استطاع النَّـاسُ أن يزرَعوا هذه الأراضىَ المستويةَ » .

كانتِ الأفكارُ تَصْطرِعُ فى رأسِ زَهرةِ الحريرِ ، ورأتْ أنه — لِكَىْ تَتقهقرَ جيوشُ الإمبراطورِ ، ولكى يَعيشَ أهلُها فى سلامٍ ، ولكىْ تثأرَ لوالدَيها — عليها أن تفعَلَ هذا . . .

لِماذا لا أُحاوِلُ أنْ أفعلَ كما فَعلَتْ زَوْجةُ الحدَّادِ ؟ !

هكذا قالتْ زَهرةُ الحريرِ .

ونَظرتْ زَهرةُ الحريرِ مرَّةً أُخرى فرأتْ أخاها الأكبرَ والحدَّادينَ يَدُورُونَ حولَ الفُرْنِ والقلقُ يغشى وُجوهَهم ، وسَمِعتْ تنهداتِهم اليائسةَ ، فألقتْ بقضيبِ الحديدِ الذى كانتْ تحرِّكُ به النِّيرانَ ، واندفعتْ نحوَ الحُجرةِ التى يرقُدُ فيها أخُوها الجريحُ .

كان أخُوها مُغمًى عليه ، وعلى صدرِه سيفُه المثلومُ ، فأخذتْ زهرةُ الحريرِ هذا السَّيفَ وشحذَتْه على قطعةِ

حَجرٍ عند بابِ الحُجْرةِ ، وضغطَتْ على أسنانِها بحزْمٍ ، وقطعَتْ شرايينَ مِعْصَمِها الأيسرِ ، ثمَّ ألْقتِ السَّيفَ إلى جوارِ أخيها وهى تَضْغَطُ بيدِها اليُمنى لتَمنعَ تدفُّقَ الدَّمِ ، ثمَّ أسرعَتْ إلى الفُرْنِ ، ومَدَّتْ يدَها ، وتركَتْ دمَها يَسيلُ إلى (بُودَقةِ) النُّحاسِ ، واصطبغَ النُّحاسُ بلَوْنِ الدَّمِ .

سَكَبَ مُرْعِدُ السماءِ والحدَّادون النُّحاسَ الأحمرَ ، وأفلحوا هذه المرَّةَ فى صِناعةِ طَبْلٍ نُحاسىٍّ ضَخْمٍ ، أحمرِ اللَّوْنِ ، وحَمَلَ مُرْعِدُ السماءِ الطَّبْلَ إلى البُرْجِ ، وقَرَعَ الطَّبلَ بكلِّ قُواهُ ، وكان صَوْتُ الطَّبْلِ النحاسىِّ الأحمرِ كهزيمِ الرَّعْدِ ، وسَمِعَ سُكَّانُ القُرى القريبةِ والبعيدةِ صَوْتَ الطَّبْلِ ، فخرجوا فِرْقةً وَراءَ فِرْقةٍ من جميعِ النواحى وأحاطوا بجَيْشِ الإمبراطورِ ، ومَلأَتْ أصواتُ المعركةِ الفضاءَ .

٤

أفاقَ مُرْعِدُ الأرض عَلَى صَوْتِ الطَّبلِ ، ونَظرَ إلى سَيفِه المثلومِ فرأى أنه قد شُحِذَ ، كما رأى عليْه خيطاً منْ دمٍ بَشريّ ؛ وفى نفسِ اللحظةِ سَمِعَ أُصواتاً تترَدَّدُ فى الخارج :

« لم يُصْنَع الطبْلُ إلَّا بعدَ أنِ اُختلَطَ دمُ زَهرةِ الحريرِ بالنُّحاسِ المصهورِ ! » .

فقفزَ مِنْ فِراشِه ، وتناوَلَ سَيفَه ، واندفَعَ إلى مَيدانِ القِتالِ . . . ولكنَّ جُيوشَ الإمبراطورِ كانت قد هُزِمَتْ واضطرَبَتْ صُفوفُها ، واندفَعَ جُنودُ الإمبراطورِ يَبغُونُ الفِرارَ . . . وَأَبصرَ مُرْعِدُ الأرضِ الإمبراطورَ يَختبِئُ وراءَ شَجرةٍ صَغيرةٍ مُضطرِباً ، فأسرعَ وجَذَبَه ، وقطعَ رأْسَه بسيْفِه كما يَقطَعُ البطِّيخةَ ، وحَمَلَه وجرى عائداً إلى البيْتِ يريدُ أنْ يُخبِرَ أُختَه أنَّ دمَها لم يَذْهَبْ هباءً .



وسمع الناس صوت الطبل فخرجوا فرقة وراء فرقة . . .

وَعند ما دخلَ البيتَ رأى أُخْتَه ترقُدُ فى فِراشِها، وقد أبيَضَّ وَجهُها وعَيناها مُغمضتانِ ، فقالَ ودُموعُه تَسيل: أُخْتى ! لقدْ أَحْضرْتُ رأسَ الإمبراطورِ لأُرِيَكِ إيَّاه ، ومِنَ المؤسفِ أنكِ لا تستطيعينَ رُؤْيَتَه !

ولكنَّ زَهرةَ الحريرِ فَتحتْ عيْنيها ، ونظرتْ إلى وَجْهِ الإمبراطورِ القبيحِ ، وركلَتْه بقدَمِها ، وقالتْ :

أيُّها الإمبراطورُ اللَّعينُ ! إنكَ تستحقُّ هذا الجزاء .

ثمَّ قالتْ لأخيها : ادْفِنُوا هذا الرَّأْسَ تحتَ الأرضِ، واصنعوا رَبْوَةً فَوْقَه ، ثمّ ادفنونى فى قِمَّةِ هذه الرَّبْوةِ ! يجبُ أن أَجعلَه دائمًا تحتَ سيطرتى حتى لا يستطيعَ الخروجَ مرَّةً أخرى ! أَخْبِرْ أخى الأكبرَ مُرْعِدَ السماء أنى أرجُوهُ ألَّا يُهمِلَ بعدَ ذلك ! وكانتْ هذه آخِرَ كلماتِها.

نفَّذَ مُرْعِدُ الأرضِ وَصيَّةَ أُخْتِـه ، فدَفَنَ رأسَ

الإمبراطورِ تحتَ الأرضِ ، وفى أثناءِ ذلك كان مُعظَمُ جُنودِ الإمبراطورِ قد قُتِلوا ، وفَرَّ باقيهِم ، وأَقبلَ النَّاسُ جميعًا يُساعِدونَ فى حَفرِ الأرضِ ، ونَقْلِ التُّرابِ ، وعَملِ رَبْوةٍ فوْقَ رأسِ الإمبراطورِ .

كانتِ الأيدى كثيرةً ، ولهـذا تمَّتْ رَبْوةٌ كبيرةٌ فى سُرْعةٍ ، وكان الناسُ يَدُورون حَوْلَها يدًا فى يدٍ ، وهم يدُكُّونَها بأقدامِهِم ، ويُنشِدون :

ألْفُ قَـدَمٍ تقفِزُ وتقفز
وعَشْرةُ آلافٍ تَخطُو وتَخطُو
سنَضْغَطُ الأرضَ بقوَّةٍ وبقوَّة
وتحتَها سيَبْقَى الإمبراطورُ أبدًا !

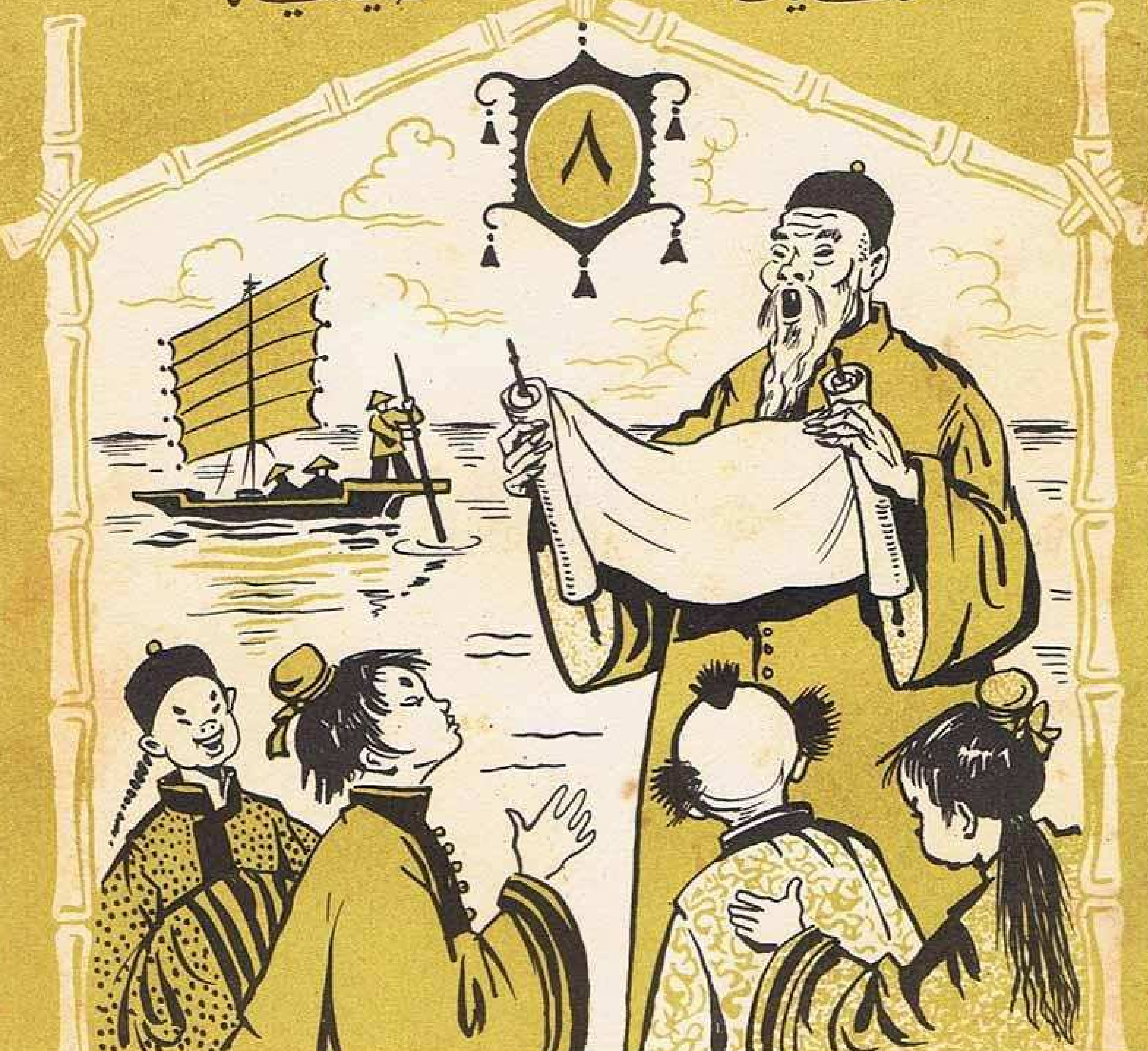
وسُمِّيَتِ الرَّبْوَةُ منذ ذلك اليَوْمِ : الجبلَ الضاغط على رأسِ الإمبراطورِ ؛ ثم أطلق عليها الناس فيما بعد : اسم جبل

الإمبراطور. وعند ما تمت الربوة دفنت زهرة الحرير على قمتها، بين دموع الناس ونحيبهم، وانحنى مرعد السماء على قبر أخته، وبكى بحزن، وأخذ يضرب رأسه بجمع يده ويقول: أختي! سأذكر كلماتك إلى الأبد! لن أكون مهملا مرة أخرى! ولم يمض زمن قليل حتى نبتت زهور حمراء لامعة على قبر زهرة الحرير، فسمى الناس هذه الزهور: الزهور الحمراء التي تعكس منظر الجبل.

وفي كل عام، عند ما تزدهر الزهور الحمراء اللامعة، كان الناس يحملون الطبل النحاسي الأحمر إلى قبر زهرة الحرير، ثم يرقصون ويغنون:

الزهور الحمراء اللامعة في كل مكان منتشرة!
والطبل النحاسي الأحمر ما زال أكثر حمرة!
والإمبراطور سيبقى أبدا تحت الربوة!
وعلى قمة هذي الربوة مدفن بطلة!

حكايات صينيّة



كنز الفضّة

دار المعارف بمصر